من الميلاد إلى البعثة

- ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسرة زكية المعدن نبيلة النسب جمعت خلاصة ما فى العرب من فضائل وترفعت عما يشينها من أوضار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم ،واصطفانى من بنى هاشم"حديث صحيح أخرجه مسلم.

- و عبد الله أصغر أبناء عبد المطلب وله فى قلبه منزلة جليلة وقد زوجه بآمنة بنت وهب ثم تركه يسعى فى الحياة وحده ، وبعد أشهر من بنائه بآمنة خرج فى مباكب الأرض وابتغاء الرزق وذهب فى رحلة الصيف إلى الشام فذهب ولم يعد ... عادت القافلة تحمل أنباء مرضه ثم جاء بعد قليل نعيه.

قال الزهرى : أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرا فمات بها. وقيل بل كان فى الشام فأقبل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ودفن فى دار النابغة الجعدى وله خمس وعشرون سنة وتوفى قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- ولد سيد المرسلين بشعب بنى هاشم بمكة فى ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل الموافق شهر إبريل من عام 571 م حسبما حققه العالم الكبير محمد بن سليمان المنصور فورى والمحقق الفلكى محمود باشا.
- وقد روى أن إرهاصات البعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخمدت النار الى كان يعبدها المجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت : قال البوصيرى :

أبان مولده عن طيب عنصره ... ياطيب مبتدأ منه ومختتم

يوم تفرس فيه الفرس أنهم ... قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

وبات إيوان كسرى وهو منصدع ... كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

والنار خامدة الأنفاس من أسف ... عليه ، والنهر ساهى العين من سدم

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ... ورد واردها بالغيظ حين ظمى

- ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشرا ودخل به الكعبة ودعا الله وشكر له ، واختار له اسم محمد – وهذا الاسم لم يكن معروفا عند العرب.
- وأول من أرضعته من المراضع – بعد أمه – ثويبة مولاة أبى لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب.

فى بنى سعد :–

وكانت عادة الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ، ابتعادا لهم عن أمراض الحواضر لتقوى أجسامهم وتشتد أعصابهم ويتقنوا اللسان العربي فى مهدهم ، فالتمس له عبد المطلب الرضعاء واسترضع له امرأة من بنى سعد ابن بكر وهى حليمة بنت أبى ذؤيب.

- مكث محمد صلى الله عليه وسلم فى مضارب بنى سعد خمس سنوات ، صح فيها بدنه واطرد نماؤه ، وقد سجلت السنن الصحاح ما عرف بعد بحدث شق الصدر
- عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني إلى مرضعته – أن محمدا قد قتل . فاستقبلوه وهو منتقع اللون .

إلى أمه الحنون

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الواقعة فردته إلى أمه وقد كان عمره عندها ست سنين .

ورأت أمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيثرب فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ 500 كم وقد ظل محمد صلى الله عليه وسلم عند أخوالة قريبا من قبر أبيه نحو شهر ثم قفل عائدا إلى مكة وإذا المرض يلاحق أمه ويلح عليها فى أوائل الطريق فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة .

إلى جده العطوف

وعاد به عبد المطلب إلى مكة فكانت مشاعر الحنو فى فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذى أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة ، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده قال ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظا الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليهم ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب : دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأنا ثم يجلس معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع .

إلى عمه الشفيق

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه وظل نحو أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته ويصادق ويخاصم من أجله .

بحيرا الراهب

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة ارتحا به أبو طالب تاجرا إلى الشام حتى وصل إلى بصربوكان فى هذه البلد راهب عرف ببحيرا فلما نزل الركب خرج إليهم وأكرمهم بالضيافة وكان لايخرج إليهم من قبل وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال أبو طالب : وما علمك بذلك ؟ ، فأخبره أنه عرفه بخاتم النبوة فى أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة وأنه يجد ذلك فى كتبه وسأل أبا طالب أن يرده ولا يقدم به إلى الشام خوفا عليه من اليهود فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة .

حرب الفجار

ولخمسة عشر من عمره كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها وقد حضر هذه الحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ينبل على عمومته .

حلف الفضول

فى الجاهلية الغافلة نهض بعض رجال من أولوا الخير وتواثقوا بينهم على إقرار العدالة وحرب المظالم وتجديد ما اندرس من فضائل فى أرض الحرم قال ابن الأثير : (... ثم إن قبائل من قريش تداعت ألى ذلك الحلف فتحالفوا فى دار عبد الله ابن جدعان لشرفه وسنه . وكانوا بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وبنى أسد ابن عبد العزى ،وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة فتحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد مظلمته وسمت قريش هذا الحلف بحلف الفضول فشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال حين أرسله الله تعالى :

(لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله ابن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت)

وقيل فى سبب الحلف أن رجل من بنى زبيد أتى بتجارة فاشتراها العاصى بن وائل السهمى ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه فاستعدى عليه قبائل قريش والأحلاف فلم يكترثوا له فوقف الغريب المظلوم على جبل أبى قيس بمكة مناديا بأشعار يصف فيها ظلامته ، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم فى الحلف فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدى بعدما أبرموا الحلف.

حياة الكدح

لم يكن له صلى الله عليه وسلم عمل معين فى أول شبابه إلا أن الروايات توالت على أنه كان يرعى الغنم فى مكة لأهلها على قراريط .

وفى الخامسة والعشرين من عمره خرج تاجرا إلى الشام فى مال خديجة رضى الله عنها قال ابن اسحاق : كانت خديجة إمرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشئ تجعله لهم ولما بلغها عن رسول الله ما بلغها من كرم أخلاقه وعظم أمانته عرضت عليه ان يخرج فى مال لها تاجرا إلى الشام مع غلام لها اسمه ميسرة .

زواجه من خديجة

ولما رجع إلى مكة ورأت خديجة فى مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا ، وحدثها غلامها ميسرة عما رأى فى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال عذبة وشمائل كريمة وجدت ضالتها المنشودة فتحدثت بما فى نفسها لصديقتها نفيسة بنت منية ففاتحت النبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوج خديجة فقبل وأصدقها عشرين بكرة ، وخديجة أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت. وكل أولاده منها سوى إبراهيم ، ولدت له القاسم ثم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ، ومات بنوه كلهم فى صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن ، إلا أنهن أدركتهن الوفاة فى حياته صلى الله عليه وسلم سوى فاطمة رضى الله عنها فقد لحقت به صلى الله عليه وسلم بعد ستة أشهر من وفاته.

بناء الكعبة وقضية التحكيم

قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بخمس سنين جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام وأوشكت معه الكعبة على الانهيار فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصا على مكانتها وخصصوا لكل قبيلة جزءا منها ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه واستمر النزاع أربع ليال أو خمسا واشتد حتى كاد أن يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا أول داخل عليهم من باب المسجد فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هتفوا قائلين : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد.

فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم رداء وضع الحجر فى وسطه ، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا بأطراف الرداء وأن يرفعوه حتى إذا وصل إلى موضع الحجر أخذه بيده فوضعه فى مكانه.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع وهى التى تسمى بالحطيم.

عناية الله بنبيه

ولاشك أن الله قد أحاط نبيه برعايته وحفظه فكان لايشرب الخمر ولايأكل مما ذبح على النصب ولايحضر للأوثان عيدا ، فيقول عن نفسه فيما رواه ابن الأثير :

" ماهممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ماهممت به حتى أكرمني الله برسالته ، قلت للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كمايسمر الشباب! فقال: أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا؟ قالوا : عرس فلان بفلانة . فجلست أسمع . فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت بمكة فأصابنى مثل أول ليلة ..ثم ما هممت بسوء.

والله الموفق

المراجع :

فقه السيرة للغزالى

الرحيق المختوم

